الباب الثالث والستون

فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخ الإسلام أبوالنجيب السهروردى قال: أخبرنا الشريف أبوطالب الحسين بن محمد الزينى، قال: أخبرتنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنىّ قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف العزيرى قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارىّ قال: حدثنا الحميدى قال: حدثنا سفيان بن عينية قال: حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى قال: أخبرنى محمد بن إبراهيم التيمىّ، أنه سمع علقمة بن وقّاص قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»..

النيَّة: أول العمل، وبحسبها يكون العمل.

وأهمُّ ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم: أن يدخل طريق الصوفية، ويتزيَّا بزيهِّم، ويجالس طائفتهم لله تعالى، فإن دخوله فى طريقهم هجرةُ حاله ووقته، وقد ورد «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه» وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [1] .

فالمريد ينبغى أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى، فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله، وكلٌ من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم.

أخبرنا أبو زرعة - إجازة - عن ابن خلف، عن أبى عبد الرحمن، عن ابن أبى العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال:

سمعت الجنيد: يقول: أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء.

فالمريد فى أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النيَّة.

وإحكامُ النيَّة: تنزيهها من دواعى الهوى وكلٍّ ما كان للنفس فيه حظّ عاجل، حتى يكون خروجه خالصًا لله تعالى..

---

(١) آية رقم ١٠٠ من سورة النساء.

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية، فمن تمت نيتُه تمَّ عون الله له، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك..

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه: أخْلص النيَّة فى أعمالك يكفك قليل من العمل، ومن لم يهتد إلى النيَّة بنفسه يصحب من يعلّمه حُسن النية.

قال سهل بن عبد الله التسترى: أوَّل ما يؤمر له المريد المبتدئ: التبرى من الحركات المذمومة، ثم النقل إلى الحركات المحمودة، ثم التفرّد لأمر الله تعالى، ثم التوقف فى الرشاد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القرب، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ويكون الرضا والتسليم مراده، والتفويض والتوكل حاله، ثم يمنّ الله بعد هذه بالمعرفة، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة. وهذا مقام حملة العرش، وليس بعده مقام».

هذا من كلام سهل جمع فيه ما فى البداية والنهاية.

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال، ولا يحقق صدقًه وإخلاصه شىء مثل متابعة أمر الشرع، وقطع النظر عن الخلق؛ فكل الآفات التى دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق.

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغر» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق، والخروج منهم، وترك التقيد بعاداتهم.

قال أحمد بن خضرويه: من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق؛ فإن الله تعالى مع الصادقين، وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ «الصدق يهدى إلى البر».

ولابدّ للمريد من الخروج من المال والجاه، والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس.

وأنفع شىء للمريد معرفةُ النفس، ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجةٌ من طلب الفضول والزيادات، أو عليه من الهوى بقية.

قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمالُ أمرك: تُصبح لا تهم لله بمعصية، وتمسى ولا تهمُّ لله بمعصية.

فإذا أحكم الزهد والتقوى انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخفيِّ شهواتها ودسائسها وتلبيساتها.

ومن تمسَّك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى.

قال ذو النون: لله تعالى فى أرضه سيف ما وضع على شىء إلا قطع، وهو الصدق.

ونقل فى معنى الصدق: أنَّ عابدًا من بنى إسرائيل راودته ملكة عن نفسه، فقال: اجعلوا لى ماءً فى الخلاء أتنظَّف به، ثم صعد على موضع فى القصر فرمى نفسه، فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدى، فلزمه، ووضعه على الأرض وضعًا رقيقا، فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال:

ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى.

وينبغى للمريد أن تكون له فى كل شىء نيّةٌ لله تعالى حتى فى أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله، ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لا تستعصى النفس، وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص.وإذا دخل فى شىء من رفق النفس، لا لله، بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه، وقد ورد فى الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر، ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة».

وقيل: كان أنس يقول: طيبوا كفىِّ بمسكٍ، فإن ثابتًا يصافحنى ويقبل يدى.

وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتَّهم.

فالمريد ينبغى أن يتفقدً جميع أحواله وأعماله وأقواله، ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى..

وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوى، عند كل لقمة، ويقول بلسانه أيضًا: آكل هذه اللقمة لله تعالى. ولا ينفع القول إذا لم تكن النية فى القلب؛ لأن النية عمل القلب وإنما اللسان ترجمان، فما لم تشتمل عليه عزيمة القلب لله لا تكون النية.

ونادى رجل امرأته وكان يسرّح شعره، فقال: هاتى المدرى. اراد «الميل»[1] ليفرق شعره.

فقالت له امرأته: أجىء بالمدرى والمرآة؟ فسكتَ. ثم قال: نعم.

(١) الميل: ما يجعل به الكحل فى العين.

فقال له مَن سمعه: سكتَّ وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم، فقال: إنّي قلت لها هات المدرى بنيةٍ.

فلما قالت: المِرآة، لم يكن لى فى المرآة نيّة، فتوقفت، حتى هيّأ الله تعالى لى نيةً، فقلت نعم، وكل مبتدئ لا يحكم أساس بدايته بمهاجره الآلاف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته. وقد قيل: من قلّة الصدق كثرة الخلطاء.

وأنفع ماله لزوم الصمت، وأن لا يطرق سمته كلامُ الناس؛ فإنَّ باطنه يتغيَّر ويتأثر بالأقوال المختلفة.

وكل من لا يعلم كمال زهده في الدنيا وتمسُّكه بحقائق التقوى لا يعرفه أبدًا، فإن عدم معرفته يفتح عليه خيرًا وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقيل كلٍّ نقش.

وربّما استضرَّ المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس، ويستضرّ بفضول النظر أيضًا، وفضول المشي، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة: فينظر ضرورة، حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره، ثم يتقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز، فإنَّ عِلْم الناس منه بذلك أخَّر عليه من فعله.

ولا يستحقر فضول المشى، فإن كل شىء من قول، وفعل، ونظر، وسماع خرج عن حدّ الضرورة جرَّ إلى الفضول، ثم يجرّ إلى تضييع الأصول.

قال سفيان: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول..

فكلُّ من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه، وانحلّت شيئًا بعد شىء..

قال سهل بن عبد الله: من لم يعبد الله اختيارًا يعبد الخلق اضطرارًا، وينفتح على العبد أبواب الرُّخص والاتساع ويهلك مع الهالكين.

ولا ينبغى للمبتدئ أن يعرف أحدًا من أرباب الدنيا؛ فإنَّ معرفته لهم سمٌّ قاتل، وقد ورد: «الدنيا مبغوضة الله، فمن تمسَّك بحبلٍ منها قادته إلى النار».

وما حبلٌ من حبالها إلاَّ كأبنائها والطالبين لها، والمحبين، فمن عرفهم انجذب إليها من شاء أو أبى!!.

ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار، فإنه يدخل عليه منهم أشرُّ ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل للمتعبدين، وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك. وينبغى للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب!!.

ولا ينبغى أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسًا!! فإنا اختبرنا ومارسنا الأمور كلها، وجالسنا الفقراء والصالحين، ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور، مع كونهم أصحاء فى أحوالهم.

فَعلى العبد التمسُّك بكل فريضة وفضيلة؛ فبذلك يثبت قدمه فى بدايته، ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصًا لا يمزجه بشىء من أحوال نفسه ومآربها، ويبكّر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة.

وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة - إذا أمكنه ذلك، فحسن، قال رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة اغتسل للجمعة، ولو اشتريت الماء بعشائك، وما من نبىّ إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة؛ فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين»[1].

ويشاغل بالصلاة والتضرع والدعاء، والتلاوة، وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلى الجمعة، ويجلس معتكفًا فى الجامع إلى أن يصلى فرض العصر، وبقيةُ النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبى ﷺ ، فإنه يرى بركة ذلك فى جميع الأسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة.

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع، لأنه يوم المزيد[2] لكل صادق.

ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارًا يعتبر به سائر الأسبوع الذى مضى؛ فإنه إذا كان الأسبوع سليمًا يكون يوم الجمعة فيه مزيد من الأنوار والبركات.

وما يجد فى يوم الجمعة من الظلمة وسآمة نفس، وقلة الانشراح فَلِما ضَيَّع فى الأسبوع. يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدًا أن يلبس للناس: أما المرتفع من الثياب، أو ثياب، المتقشفين ليُرى بعين الزهد؛ ففى لبس المرتفع للناس هَوَى، وفى لبس الخشن رياء، فلا يلبس إلاّ لله.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أى يوم الجمعة.

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبًا ، ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس، فَهمَّ أن يخلع ويغيرٍّ، ثم أمسك وقال: لبسته بنيَّةٍ لله، فلا أغيِّره فألبسه بنيّه للناس. فليعلم العبد ذلك وليعتبره.

ولابد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ من القرآن من السَّبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر، كيف أمكن. ولا يصغى إلى قول من يقول: ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن! ! فإنه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى.

وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرًا واحدًا ليجتمع الهمُّ فيه.

ومن لازم التلاوة فى الخلوة، وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أوْفَى ما يفيده الذكر الواحد؛ فإذا سئم فى بعض الأحايين يُصانع النفس على الذكر مصانعةً، وينزل من التلاوة إلى الذكر فإنه أخفُّ على النفس. وينبغى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب، فكلُّ عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد؛ فإنه عمل ناقص..

ولا يحقر الوساوس وحديث النفس؛ فإنه مضرٌّ وداء عضال، فيطالب نفسه أن يُصيرَ فى تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه، فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن فى القلب لا يمزجه بحديث النفس.

وإن كان أعجميًا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنة فيشغل باطنة بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس؛ فإنَّ بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة.

قال مالك: قلوب الصدِّيقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة.

فليتمسك المريد بهذه الأصول، ليستعن بدوام الافتقار إلى الله، فبذلك ثبات قدمه.

قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء ، وعلى قَدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله ، فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير ، ومفتاح كل علم دقيق فى طريق القوم .

وهذا الافتقار مع كل الأنفاس لا يتشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها .

وكل كلمة وحركة خلت من مراجعة الله والافتقار فيها لا تُعقب خيرًا قطعًا ، علمنا ذلك وتحققناه وقال سهل : من انتقل من نَفَس إلى نَفَس من غير ذكر الله فقد ضَيَّع حاله ، وأدنى ما يدخل من ضيَّع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه .

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم : لمن هذه الدار؟ ثم رجع إلى نفسه وقال : مالى وهذا السؤال ؟! وهل هذه إلاّ كلمة لا تعنينى ؟! وهل هذا إلا لاستيلاء نفسى وقلة أدبها ؟! وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة .

فبالصدق نالوا ما نالوا ، وبقوة العزائم – عزائم الرجال – بلغوا ما بلغوا .

أخبرنا أبو زرعة–إجازة–قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا عبد الرحمن ، قال سمعت منصورًا يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطىّ يقول : سمعت الجنيد يقول : لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته من الله أكثر مما ناله .

وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يُحكمها ، والمنتهى عالم بها ، عامل بحقائقها ، فالمبتدئ صادق ، والمنتهى صدّيق .

قال أبو سعيد القرشى : الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس .

وعلامته : أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض ، وإذا اشتغل بالذكر نورً الروح ، وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار .

والصدّيق : الذى استقام ظاهره وباطنه ، يعبد الله بتلوين الأحوال ، ولا يحجبه عن الله وعن الأذكار ولا نوم ولا شراب ولا طعام ، والصدّيق يريد نفسه لله . وأقرب الأحوال إلى النبوّةِ الصدِّيقية .

وقال أبو يزيد : نهايات الصدِّيقين أول درجة الأنبياء .

وأعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله ، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفس ووطئت بساط القرب ، ونفوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب ، مجيبة إلى كلّ ما تجيب إليه القلوب ، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى انطفأت فيهم نيران الهوى وتخمرنى بواطنهم صريح العلم ، وانكشفت لهم الآخرة ، كما قال رسول الله ﷺ فى حق أبى بكر – رضى الله عنه : «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر» إشارة منه ﷺ إلى ما كوشف به – من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام

المؤمنين إلا بعد الموت حيث قال: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] فأرباب النهايات ماتت أهويتُهم وخلت أرواحهم.

قال يحيى بن معاذ: وقد سئل عن وصف العارف، فقال: رجل معهم بائنٌ منهم.

وقال مرّةً: عبد كان فبان.

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم معوقين بتوقيت الأجل، جعلهم الله تعالى من جنوده فى خلقه بهم يهدى، وبهم يرشد، وبهم يجذب أهل الإرادة، كلامهم دواء، ونظرهم دواء، ظاهرهم محفوظ بالحكم، وباطنهم معمور بالعِلْم.

قال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم، ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله.

فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية، وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قُربًا، وكلما ازدادوا جاهًا ورفعة ازدادوا تواضعًا وذلّة ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرًا صافيًا، يتناولون الشهوات تارة رفقًا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشىء ويهدى له شىء؛ لأنه مقهور تحت السياسة، مرحوم، ملطوف به، وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيًا بالأنبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا عروس تطليها ما شطتها، والزاهد فيها يُسخِّم وجهها، وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف بالله مشتغل بسيده، ولا يلتفت إليها.

واعلم أن المنتهى، مع كمال حاله، لا يستغنى أيضًا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر.

وقد غلط فى هذا خلق! ! وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال فى تناول الملاذّ والشهوات.

وهذا خطأ، لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته، ولكن يوقف عن مقام المُزيد وقوم لـمَّا رأوا أنَّ هذه الأشياء لا تؤثِّر فيهم قسوةً، ولا تورثهم حجبةً ركنوا إليها،

---

(١) آية ٢٢ من سورة ق.

(٢) آية رقم ٥٤ من سورة المائدة.

[illegible]

واسترسلوا فيها، وقنعوا بأداء الفرائض، واتسعوا فى المأكل والمشرب، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال، وتقيدٌ بنور الحال، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق. ومن تخلّص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر، ويوقف نفسه مقام العبيد، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البّر حتى بإماطة الأذى عن طريق المؤمنين.

ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود فى صور عوامّ المؤمنين من إظهار الإرادة بكل برّ وصلة؛ فيتناول الشهوات وقتًا رفقًا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة؛ لأنها أسيرته. ويمنعها الشهوات وقتًا؛ لأن فى ذلك صلاحها.

واعتبر هذا سواء بحال الصبى، فإنه إن جاوز حدّ الاعتدال من إعطاء المراد وقتًا ومنعه وقتًا انفسد طبعه؛ لأن الجبلّة لابدّ من قمعها بسياسة العلم، وما دامت الجبلة باقية لابدُّ من سياسة العلم.

وهذا باب غامض دخل فى النهايات على المنتهى من ذلك دواخل، ووقع الركون، وانسدّ به باب المزيد، فالمنتهى ملك ناصية الاختيار فى الأخذ والترك.

ولابدّ له من أخذٍ وتركٍ فى الأعمال والحظوظ، ففى الأعمال لابدّ له من أخذ وترك، فتارةً يأتى بالأعمال كآحاد الصادقين، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقًا بالنفس، وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقًا بالنفس، وتارة يتركها افتقادًا للنفس بحسن السياسة، فيكون فى ذلك كله مختارًا؛ فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية، فهو زاهد تارك بالكلية. ومن استرسل فى أخذها فهو راغب بالكلية.

والمنتهى شمل الطرفين؛ فإنه على غاية الاعتدال، واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط. فمن ردّت إليه الأقسام فى النهاية، فأخذها زاهدًا فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار. وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال.

وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار، فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ما سيق إليه لرؤيته فعل الله مقيدًا بالأخذ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتًا واختياره من اختيار الله، ويأخذ وقتًا واختياره من اختيار الله، وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتى بها وقتًا ويسمح للنفس وقتًا؛ لأنه مختار صحيح فى الاختيار فى الحالين. وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية.

وكل حال يستقرّ ويستقيم يشاكل حال رسول الله ﷺ.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله، غير رمضان، ويتناول الشهوات[1].

ولما قال الرجل إني عزمت أن لا آكل لحما، قال: فإني آكل اللحم وأحبه، ولو سألت ربى أن يطعمنى كل يوم لأطعمنى.

وذلك يدلّك على أن رسول الله ﷺ كان مختارًا فى ذلك: إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل. وكان يترك الأكل اختيارًا.

وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم: إن رسول الله ﷺ فعل كذا.. يقولون: كان رسول الله ﷺ مشرِّعًا.

وهذا إذا قالوه، على معنى أن لا يلزمهم التأسّى به جهل مَحْضٌ، فإن الرخصةَ الوقوفُ على حدّ قوله، والعزيمة التأسيّ بفعله.

وقول رسول الله ﷺ لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم.

ثم إنَّ المنتهى يحاكى حالُه حالَ رسول الله ﷺ فى دعاء الخلق إلى الحق، فكلُّ ما كان يعتمده رسول الله ﷺ ينبغى أن يعتمده، فكان قيام رسول الله ﷺ وصيامه الزائد لا يخلو: إمّا أنه كان ليقتدّى به، وإمّا أنه كان لمزيد كان يجده بذلك، فإن كان ليُقْتَدى به فالمنتِهى أيضا مقتدى به ينبغى أن يأتى بمثل ذلك.

والصحيح الحقُّ أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء، بل كان يجد بذلك زيادة، وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلّة.

قال الله تعالى خطابًا له: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[2] لأنه بذلك ازداد استمدادًا من الحضرة الإلَهية وقرع باب الكرم.

والنبى ﷺ مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى، غير مستغن عن ذلك.

ثمَّ فى ذلك سرّ غريب: وذلك أنَّ رسول الله ﷺ برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلقَ إلى الحق، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به، وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف، كما أنَّ بين روحه وأرواحهم رابطةُ التأليف.

---

(١) أى ما تشتهيه نفسه من المشتهيات التى أحلّها الله، والتعبير فى جانب رسول الله ﷺ بالشهوات. سبق قلم.

(٢) آية رقم ٩٩ من سورة الحجر.

ورابطةُ التأليف: أنَّ النفوس ألفَت آنفًا، كما أنَّ الأرواح ألفت أولاً.

ولكل روح مع نفسه تأليف خاص، والسكون، والتأليف والامتزاج واقع بين النفوس والأرواح.

وكان رسول الله ﷺ يديم العمل؛ لتصفية نفسه ونفوس الأتباع.

فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة.

وهكذا المنتهى مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى، فلا يتخلّف عن الزيادات والنوافل. ولا يسترسل فى الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس، ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة.

وكلّ من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لابدَّ له من خلوة صحيحة بالحق، حتى تكون جلوته فى حماية خلوته.

ومَن يتراءى له أن أوقاته كلَّها خلوة، وأنه لا يحجبه شىء، وأن أوقاته بالله، ولله، ولا يرى نقصانًا؛ لأن اللّه ما فطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح فى حاله، غير أنه تحت قصور؛ لأنه ما نبّه لسياسة الجبلّة، وما عرف سرَّ تمليك الاختيار وما وقف من البيان على البيضاء النقيّة.

وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه، فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها، والأوْلَى أن يفتقر إلى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يُسمعه الله من ذلك الصواب.

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة، فقال: إذا اجتمعت المتفرقات، واستوت الأحوال والأماكن، وسقطت رؤية التمييز.

ومثل هذا القول يوهم أنه لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها، ولم يفهم منه أنَّ القائل أراد بذلك معنى خاصًا، يعنى أن حظَّ المعرفة لا يتغيّر بحال من الأحوال وهذا صحيح؛ لأن حظَّ المعرفة لا يتغيّر ولا يفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه، ولكن حظّ المريد يتغيّر ويحتاج إلى التمييز، وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه.

قيل لمحمد بن الفضل: حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال: حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلُّها ألاَ وهى الاستقامة، وكل من كان أتمَّ معرفةً كان أتمَّ استقامة؛

فاستقامة أرباب النهاية على التمام، والعبد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محجوب بها عن الأحوال.

وفى التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال.

وفى النهاية لا تحجبه الأعمال عن الأحوال، ولا الأحوال عن الأعمال. وذلك هو الفضل العظيم.

سئل الجنيد عن النهاية فقال: هى الرجوع إلى البداية.

وقد فسرَّ بعضهم قول الجنيد، فقال: معناه أنَّه كان فى ابتداء أمره فى جهل، ثم وصل إلى المعرفة، ثم ردّ إلى التحيّر والجهل، وهو كالطفولية: يكون جهل، ثم علم، ثم جهل. قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْم شَيْئًا﴾[1].

وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشدّهم تحيّرًا فيه.

ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكَرناه: أنه يبادىء الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال.

وهذا يكون للمنتهى المراد المأخوذ فى طريق المحبوبين تنجذب روحه إلى الحضرة الإلَهية وتستتبع القلب، والقلب يستتبع النفس، والنفس تستتبع القالب، فيكون بكليته قائمًا بالله، ساجدًا بين يدى الله تعالى.

كما قال رسول الله ﷺ: «سجد لك سوادى وخيالى» وقال الله تعالى: ﴿ولِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بالغُدُوِّ وَالآصَال﴾[2].

والظلال: القوالب تسجد بسجود الأرواح. وعند ذلك تسرى روح المحبَّة فى جميع أجزائهم وأبعاضهم. فيتلذذون، ويتنعَّمون بذكر الله تعالى، وتلاوة كلامه محبةً وودًّا، فيحبهم الله تعالى ويحببهم إلى خلقه نعمةً منه عليهم وفضلاً، على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى - رحمه الله - قال: أخبرنا أبو طالب الزينى، قال: أخبرتنا كريمة المرزوية، قالت: أخبرنا أبو الهيثم الكشمهينى، قال: أخبرنا أبو عبد الله الفريرى، قال: أخبرنا أبو عبد الله البخارى، قال: حدثنى إسحق، قال:

---

(١) من آية ٥ من سورة الحج.

(٢) آية ١٥ من سورة الرعد.

حدثنا عبد الصمد، قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال:

قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى إذا أحبَّ عبدًا نادى جبريل: إنّ الله تعالى قد أحبَّ فلانًا، فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل فى السماء: إنَّ الله قد أحبَّ فلانًا، فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول فى الأرض»[1].

وبالله العون والعصمة والتوفيق.

بحمد الله تعالى

الجزء الأخير من كتاب

عوارف المعارف للإمام السهروردى

والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) متفق عليه.

obeikandl.com